اللسانيات التاريخيّة ليعيد النظر في معطيات تمّ استقراؤها من وجهة نظر آنية من قبل النحاة العرب. بحيث يمكن أن نقول إنّه أعطى الأولويّة للوجهة الزمانيّة على الوجهة الآنيّة. وهو عكس ما ينبغي أن يكون. ونجمل رأيه كما يلي: بما أن الإعراب غير موجود في اللهجات العاميّة وغير موجود في الألسنة الساميّة الأخرى بصفة واضحة ومقنعة إذن فهو لم يكن موجودا في العربية الفصحى. وما وجد منه في كتب النحو إنّما هو من اختلاق النحاة لأنهم خلطوا أثناء مدوّنتهم بين لهجات مختلفة وبالتالي بين أنظمة نحويّة مختلفة [1].

ليست غايتنا من استعراض هذا الرأي الردّ عليه ودحضه. فقد نهض بذلك باحثون آخرون [2]. ولكن الذي نريده هو أن نفسّر سبب هذا القول بعدم أصالة الإعراب تاريخيّا، ومنشأه عند باحث في قيمة هذا الرجل. ونرى أن سبب هذا التعسّف الذي وقع فيه إنّما أوقعه فيه المنهج التاريخي كما شاع قبل إعادة الصياغة السويسرية. وقد كان من الأفيد علميّا ومعرفيّا أن نثق بوصف النحاة العرب للسانهم. وقد قاموا بذلك على أساس آني شأنهم في ذلك شأن غيرهم من النحاة القدامى [3]، وأن ننطلق من وصفهم لدراسة تطوّر العربيّة من عصرهم إلى عصرنا، فتأتي الدراسة الزمانيّة لاحقة الآنية لا أن ننطلق من معطيات تاريخية (متعلّقة بانقراض الإعراب موجودة من وجهة نظر آنية في شكل ظواهر قليلة الانتشار) ثم نخضع الوضع الآني المعني بالدرس - عصر الاستشهاد - لهذا المنظور الزماني.

ويترجم ذلك عمليا بأن نعمّم قسريا ظواهر هامشية على حساب الظواهر المطّردة. وهذا ما صنعه إبراهيم أنيس ولم يبق له من حجة إلاّ اتّهام النحاة العرب بالخلط بين اللهجات واختلاق نظام الإعراب وفرضه. وهو أمر يصعب تصديقه إذا قسنا الغائب على الشاهد كما يقول ابن خلدون.

---

1 المرجع السابق ص 216 و ص 249

2 انظر حوصلة للمواقف في أطروحة حماسة عبد اللطيف العلامة الإعرابية في الجملة.

3 انظر رأي دي سوسير في النحاة الأوربيين القدامى ص 118 من دروس في اللسانيات العامة النسخة الفرنسية وسنرمز لها مستقبلا ب. C.L.G.